

الإمامان ابن باديس ومحمد عبده

موازنة

د. محمد بن سمينة *

القسم الثاني والأخير

ثالثا: في ميدان الكتابة: كان لأفكار محمد عبده تأثيرها الواضح على حركة النهضة الحديثة في العالم العربي الإسلامي في أكثر من ميدان، وقد ألمعنا فيما سبق إلى شيء من ذلك في المجال الديني والاجتماعي والمعرفي. ونود في هذه الفقرة أن نعرف شيئا من ذلك في ميدان اللغة والأدب ونبادر بالقول أن الدارس لجهود محمد عبده في هذا الحقل تصادفه إسهاماته في جوانب عديدة منها:

1 - أن محمد عبده كان قد عكف على إحياء جملة من مصادر اللغة العربية وآدابها وكان قد أسس لهذا الغرض جمعية إحياء العلوم العربية⁴³. فنشر عددا من كتب التراث يأتي في مقدمتها: نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، وشرح مقامات الهمذاني، ونشر كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني والمخصص لابن سيده.

2 - كان محمد عبده قد قام بجهود نظرية في حث الطلاب والكتاب على العناية باللغة العربية وقواعد وآدابها كما حاول إلى جانب هذه الجهود المختلفة

* أستاذ بجامعة الجزائر.

أن يقدم من خلال كتاباته النموذج التطبيقي الذي يمكن أن يكون مثالا يحتذى به الأدباء في أعمالهم موضوعا وأسلوبا.

3 - كان محمد عبده قد ظهر في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكان النثر العربي يومئذ قد بدأ لتوه يتلمس طريقه نحو التخلص من مظاهر الضعف الموروثة، فانعكس ذلك على بعض كتاباته وكان لهذه الجهود الطيبة أن أتت أكلها في تطويع اللغة العربية للتعبير عن حاجات العصر والإسهام في عملية تطوير النثر العربي. وإن المتأمل في نتاجه يمكنه أن يلحظ أنه مر بمرحلتين اثنتين⁴⁴ :

1- تعود المرحلة الأولى إلى أيام التحصيل بالأزهر، وقد اتسم نتاجه فيها ببعض خصائص النثر في عصر الضعف: مقدمات طويلة، بعض الألفاظ العامة والأعجمية، كثرة السجع. ويصادف الباحث في آثار الإمام جملة من النصوص التي تمثل صنعته في هذه الفترة من ذلك ما كتبه في تقريظ الأهرام وهو طالب بالأزهر "إنه لما نظر كل قاص و دان، واشتهر بين بني نوع الإنسان أن مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك وكعبة يؤمها كل سالك وناسك، إذ كانت قد اختصت برتبة العلوم، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم، وانفردت بالبراعة في الصنائع، والابتكار في أنواع البدائع...."⁴⁵

ومن ذلك أيضا نصه الكتابة والقلم⁴⁶ وقد تحدث كثير من الدارسين عن أسلوبه في هذه المرحلة⁴⁷.

2 - ويمكن أن تعود المرحلة الثانية إلى ما بعد تعيينه على رأس تحرير جريدة الوقائع المصرية، وقد أخذ مع بداية هذه الفترة يحاول أن يتحرر في

أسلوبه من بعض مظاهر الضعف، فظهر ذلك في مجموعة من المقالات الصحفية مال فيها إلى الترسل وترك السجع، وقد ازداد هذا الاتجاه التحرري في أسلوبه وضوحا في أعقاب اشتغاله بالعروة الوثقى في باريس ثم في عكوفه ببيروت على نشر بعض مصادر اللغة العربية وآدابها فانعكس ذلك على صورة أسلوبه فأصبح حرا مرسلا ينسج فيه على منوال ابن خلدون في المقدمة، ويحذو فيه حذو الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وقد اتسمت صناعته في هذه المرحلة بجملة من الخصائص أهمها: الترتيب والتقسيم، الترسل والتحرر من السجع، السهولة في الألفاظ، الجزالة في التراكيب، الأقيسة المنطقية، الخواتم الدينية، الجمل المعترضة، الإفادة من التراث الديني والأدبي.

ويمكن أن تكون مقالاته في العروة الوثقى نموذجا لأسلوبه في هذه المرحلة وقد عاد للعربية بذلك على يديه في ميدان النثر حريتها وقوتها وطلاقتها، كما رجع لها ذلك في حقل الشعر على يدي البارودي⁴⁸.

ويمكن أن يعتبر محمد عبده بإسهاماته في تطوير أسلوب الكتابة من بين أبرز رواد النثر العربي الحديث طوعوا أسلوب الكتابة للتعبير عن مختلف وجوه الحياة الجديدة مما ساعد على تقديم النموذج الأدبي الجديد للكتاب والشعراء لينسجوا على منواله أعمالهم وقد سار على ذلك كثير من تلامذته من بينهم: محمد رشيد رضا، المنفلوطي، سعد زغلول، حافظ إبراهيم، عبد المحسن الكاظمي، قاسم أمين وغيرهم... فأبدع هؤلاء أدبا، صوراً بصدق بعض قضايا الأمة، ونهض بقوة بأمانة التبليغ والتوجيه⁴⁹.

وماذا بعد عن إسهامات ابن باديس وجهوده في ميدان خدمة اللغة العربية: إحياء وتطويرا وتطويرا؟ وأين يلتقي الإمامان في هذا الميدان؟ وأين يختلفان؟

يمكن القول أن ابن باديس يلتقي مع محمد عبده في معظم ما تميزت به جهوده في حقل النهضة الفكرية والأدبية خدمة للعربية وإحياء لتراثها تدريسا وتوجيها وكتابة، فكان له ما كان لمحمد عبده من أثر في تطوير العربية وتطوير عملية الكتابة بما كان ينشر وبما كان يوجه، فخرج على يديه كوكبة من الأدباء نذكر من بينهم: محمد الهادي السنوسي، أحمد سحنون، محمد العيد، أحمد بن ذياب، أبو بكر بن رحمون، الربيع بوشامة، عبد الكريم العقون، محمد الصالح رمضان، أحمد بوشمال، محمد الغسيري وغيرهم... وتجدر الملاحظة أن الإمامين قد عاشا فترة تاريخية متشابهة بالنظر إلى مسار حركة النهضة الحديثة في المشرق وفي المغرب، فقد جاء محمد عبده إلى ميدان العمل بعد مجيء الرعيل الأول من الرواد الذين أرهصوا بالنهضة العامة في المشرق ومهدوا لها من أمثال: الطهطاوي، الشدياق، اليازجي، علي مبارك وغيرهم... وقد ظهر ابن باديس في فترة مماثلة على مستوى حركة النهضة الحديثة في الجزائر فقد جاء بعد هؤلاء الشيوخ المجاوي، ابن سماية، ابن شنب، ابن الخوجة، ابن الموهوب، وغيرهم... هؤلاء الذين كان تأثيرهم على اليقظة العامة في الجزائر يشبه تأثير من سبق ذكرهم من أعلام الشرق على النهضة القومية. فنتج عن ذلك أن كانت إسهامات ابن باديس في تطوير حركة النهضة الفكرية والأدبية في الجزائر قريبة من إسهامات محمد عبده في النهضة المشرقية.

وإن هذا التلاقي بين هذين الإمامين في هذا الحقل لا يمنع من تسجيل بعض الفروق بينهما من ذلك:

1- أن جهود الإمام محمد عبده في ميدان إحياء التراث ونشره كانت أوسع من جهود ابن باديس، ذلك أنها شملت العلوم الدينية والأدبية معا، بينما تكاد تقتصر إسهامات ابن باديس في هذا الميدان على نشر بعض الآثار الدينية، وكانت مشاركته في خدمة التراث الأدبي تدريسا فحسب.

وإن تعليل هذا الفرق بين الإمامين في هذا الميدان واضح وبسيط، ويمكن رده، بالإضافة إلى تباين معطيات البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية بالمغرب وبالمشرق، إلى مختلف أعباء المسؤولية الملقاة على كاهل ابن باديس مع قلة الإمكانيات وكثرة العوائق في قيادة حركة النهضة العامة في الجزائر: تدريسا للعامة والخاصة، وإشرافا على مجلة الشهاب إعدادا وتحريراً، ورئاسة لجمعية العلماء قيادة وتوجيها، وتصديا لمخططات المحتلين عمليا ونظريا، أحسب أن هذه المهام وغيرها لم تترك الفراغ لابن باديس ليشترك مشاركة واسعة في حركة التأليف والتصنيف، وكان رحمه الله يحس بذلك، وقد سبق أن رأينا أنه علل لذلك بتفرغه إلى ما تفرغ له من نشاط في أكثر من ميدان، ومع ذلك فقد كان أكثر إخوانه المصلحين مساهمة في ميدان الكتابة والشعر، كما كان أكثرهم هوضا بتبعات المسؤولية.

2 - لم يعرف أسلوب ابن باديس ما عرفه أسلوب محمد عبده في مرحلته الأولى من سجع وصنعة، وإن ما وصلنا من أعماله كان معظمه مطبوعا بطوابع الترسل والتحرر من معظم الزخارف والقيود.

ونخلص من هذه الوقفة التي حاولنا أن نوازن فيها ما بين محمد عبده وابن باديس إلى القول بأن ظاهرة التأثير والتأثر بين الإمامين في التصور وفي المنهج، في المنطلقات وفي الأفكار، في الدوافع و في الغايات كانت واضحة جلية لا يمكن أن تخفى معالمها على باحث محقق، وقد نص على ذلك كثير من الباحثين⁵⁰ ونود أن نشير بادئ ذي بدء إلى أن الإمامين لم يلتقيا بالرغم من أن محمد عبده قد زار الجزائر سنة 1903، وقد كان ابن باديس يومئذ في الطور الأول من التحصيل لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره مما لم يسمح له بأن يكون من بين العلماء الذين حضروا مجالس محمد عبده أثناء هذه الزيارة.

ويذكر ابن باديس أنه لم يقرأ لمحمد عبده إلا القليل يوم بدأ حركته⁵¹ غير أن هذا القول يجب تفسيره في السياق الذي قيل فيه، ذلك أن ابن باديس قد قال ذلك في موقف الدفاع عن النفس مما يتهمة به المحتلون من أن له اتصالات خارجية بغرض الكيد له، والوقية به وبحركته. كما يمكن القول من جهة أخرى أن ابن باديس إذا لم يقرأ إلا القليل من آثار محمد عبده في بداية حركته، فإن هذا لا يمنع من أن يكون قد قرأ الكثير له من بعد ذلك على امتداد حياته من خلال ما نشر من مقالاته في العروة الوثقى التي يؤكد بعض المعاصرين أن ابن باديس كان يدرس بعض فصولها لطلبته⁵² ومن خلال ما نشر من تفسيره وأفكاره في المنار، ويؤكد محمد عبده نفسه أن صاحب المنار قد أنشأ له بواسطتها "حزبا أوجد له تلاميذ وأصحابا"⁵³ وقد كان الجزائريون من قراء هذه المجلة مما يجعل هذه المقولة تشملهم، ويؤكد ذلك أن بعضهم كان قد أوصى محمد عبده أثناء زيارته للجزائر بأن يبلغ صاحبها رغبتهم في عدم

التعرض لفرنسا بشيء حتى لا تتخذ بذلك ذريعة تحملها على حرمانهم من تلك المجلة التي كانوا يعدونها بمثابة "مدد الحياة لهم"⁵⁴.

وكان ابن باديس كثير الرجوع إلى المنار، كثير النقول منها، كما كانت الصلة الروحية والفكرية بين صاحبها وبين ابن باديس حميمة وقوية. ويصادف المرء إعجاب ابن باديس بشخصية محمد عبده وتقديره له في أكثر من موطن، ويبدو بعض ذلك فيما نشره في الشهاب على هامش إحيائه وفاته الثلاثين من نصيحته للجزائريين مرفوعة بصورته كما سجل ابن باديس بخط يده ما يخلد هذا الإعجاب وهذا التقدير في كلمة بعنوان "قولة عظيم في عظيم" يقول فيها: "قال الشيخ محمد بخيت كبير الأزهريين اليوم في الشيخ محمد عبده في حفلة أقيمت لذكراه بمصر...."⁵⁵: "ترك فراغا عظيما كان يشغله وحده لم يستطع أحد أن يشغله بعده" نقلا عن جريدة المقطم الصادرة في 18 ذي الحجة عام 1346 ويختتم ابن باديس هذه الكلمة بقوله: "فحيا الله تلك الأرواح الطاهرة والنفوس الكبيرة كتبه عبد الحميد بن باديس"⁵⁶.

ويصادف الدارس كثيرا من الجزائريين الذين يؤكدون هذه الصلة وهذا التلاقي الروحي والفكري بين الإمامين⁵⁷ ويحسن التذكير في هذا المضممار أن هذا التأثير العبدوي لا يخص ابن باديس وحده من بين غيره من الجزائريين، وإنما يكاد يشمل معظمهم، سواء منهم أولئك الذين أرهصوا باليقظة العامة ومهدوا إلى النهضة الحديثة من أمثال: المجاوي، ابن سماية، عمر راسم، ابن الخوجة وغيرهم...

أم أولئك الذين جاؤوا من بعدهم من جيل ابن باديس الذين جاهدوا وضحوا
ليجعلوا من الدعوة الإصلاحية حركة منظمة شاملة تؤصل لأسباب النهوض
في مختلف مناحي الحياة، وتعمل لتوفير الوسائل لتحرير البلاد.

رابعاً: الخلاصة:

ونذكر أن هذا التقارب الملحوظ ما بين هذين الإمامين: روحا وفكراً، منهجاً
وجهاداً، مهما تكن درجته، فإنه لا يمنع، لأسباب عديدة، من تسجيل
وجوه الافتراق بينهما في أكثر من ميدان من ذلك:

1 - أن محمد عبده قد اقتصر أو يكاد في منهجه الإصلاحية على الجانبين
الديني والتثقيفي والتهذيبي ولم يشغل بالسياسة إلا لماماً، وكان يرى أن العمل
التربوي يمكن أن يكون بديلاً عن العمل السياسي⁵⁸، بينما كان ابن باديس قد
جمع في مشروعه الإصلاحية ما بين الدين والاجتماع والسياسة، فكان يتحرك
في هذه الميادين كلها في وقت واحد، يمكن للعقيدة الصحيحة وينشر الفضيلة
ويحث على العلم وينافح عن الحقوق ويدود عن المقومات، وهو بهذه الأعمال
كان يتحدى المحتلين ويناھض مخططاتهم التغريبية الرامية إلى النيل من كيان
الشعب الجزائري ومن مقومات شخصيته. ولا شك أن بناء مسجد وتدشين
مدرسة وإصدار صحيفة وتأسيس جمعية وفتح ناد، لا شك أن ما تقوم به هذه
المؤسسات من بناء الإنسان وتوعيته بمحيطه وإعداده إعداداً يدفعه إلى تحقيق
ذاته على أرضه، إنما يدخل في صميم العمل الوطني. ويمكن القول من ثم أن
ابن باديس كان يزاوج في منهجه ما بين السياسة وغيرها منذ دخوله معترك
الحياة العامة⁵⁹.

2 - كان محمد عبده يميل في منهجه الإصلاحى إلى الجانب النظرى أكثر من غيره، فى الوقت الذى كان ابن باديس يجمع إلى حد ما فى منهجه الإصلاحى ما بين الناحيتين النظرية والعملية ولعله كان يولى الناحية الأخيرة عناية أكثر بحرصه الدائم على الاتصال بجمهور الأمة بصفته واعظاً مرشداً ومعلماً، مربياً وصحافياً حراً، مما ساعده على التعرف على مشكلات الأمة عن كثب، فساهم فى إصلاح شؤونها ومعالجة أمراضها والذود عن خياراتها⁶⁰.

3 - كان محمد عبده قد تقلب طوال حياته فى عدة وظائف حكومية، بينما كان ابن باديس قد أخذ عهداً على نفسه منذ بداية حياته على ألا يمارس أى وظيف حكومي ما دام ذلك فى أيدي المحتلين لقناعته أن ذلك لا يخدم الأمة وإنما سيكون من أشد العوائق لمن أراد أن ينهض بذلك، ويستدل على رأيه بما أصاب حركة الإصلاح فى مصر وتونس وغيرها من بلاد الإسلام، لأن معظم القائمين عليها كانوا موظفين عند السلطات الحاكمة، وهو فى هذا الخيار يشبه الإمام محمد رشيد رضا الذى رفض الاشتغال بالوظيفة.

وإن ابن باديس لا يؤاخذ محمد عبده على التحاقه بالوظيفة، وإنما بحث له عن مبرر لذلك، فذهب إلى أنه قبل الوظيفة لما كان يعلق عليه من أمل فى إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية⁶¹.

4 - وقد قام ابن باديس، وهو حر من كل أغلال الوظيفة، بمعظم ما قام به محمد عبده وهو موظف فأسس لنفسه حركة، ووفر لها من الوسائل: التعليم، الصحافة، النوادي، الجمعيات ما مكنه من أن يتحرك بمشروعه الحضارى فى ميادين عديدة، ويكون دائماً الاتصال بالأمة فى مختلف قواعدها يشخص الأدواء ويصف الدواء، ويأخذ بأيديها على طريق التحرر والتقدم.

5 - وإنما يمكن أن نخلص إليه في هذه الموازنة ما بين هذين الإمامين أن وجوه التلاقي بينهما كانت أكثر من غيرها، وأن ما كان بينهما من فروق ، إنما هو أمر طبيعي يعود إلى اختلاف العوامل الذاتية : الموهبة النشأة، التكوين، وإلى بعض العوامل الموضوعية: تباين في وجوه البيئة المحلية ما بين المغرب والمشرق وما حبلت به من تحديات هنا وهناك؛ وأما ما كان يربط بينهما من وجوه الاتفاق وهي كثيرة، فذلك ما لا يصعب تفسيره وتعليقه، فيما نحسب، على من عرف أن المرجعية الفكرية للشيخين كانت واحدة، وأنهما كانا يستمدان آراءهما ومواقفهما وسلوكهما من مصدر واحد، ألا وهو الدين الإسلامي: قرآنا وسنة وسيرة السلف الصالح وما استنار بذلك من علم وفكر وسلوك. وإنه لمن المستبعد، فيما نحسب، أن يختلف اثنان اختلافا جوهريا فيما يصدر عنهما من مواقف وأعمال وتكون قدراتهما الروحية والعقلية تستنير بهدي هذه المرجعية الدينية الواحدة، إن التصور واحد وإن المنطلق واحد، ومن ثم كانت أساليب العمل متشابهة، والغايات واحدة، وكانت النتائج متقاربة.

الهوامش:

43 - ينظر د/ عمر الدسوقي: في الأدب الحديث 1/ 385 دار الكتاب العربي بيروت 1966.

44 - ينظر محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده 37/2. (مطبعة النار القاهرة

1931) ويجعلها بعضهم أربع مراحل: 1 - مرحلة الطلب بالأزهر 2 - مرحلة الوقائع

3 - مرحلة العروة الوثقى 4 - مرحلة ما بعد عودته من المنفى ينظر د/عبد اللطيف حمزة: أدب

المقالة الصحفية في مصر 2/ 82 .

45 - ينظر الأهرام: ع 15 س 1: 1876 وينظر محمد عبده: الأعمال الكاملة 7/3.

46 - ينظر الأهرام: ع 8 س 1: 1876 وينظر محمد عبده: الأعمال الكاملة 9/3.

- 47 - ينظر محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده 43/2 وينظر د/ عمر الدسوقي في الأدب الحديث 372/1 وينظر د/ شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر ص 223 ، 227 - ط3 دار المعارف مصر د - ت.
- 48 - ينظر د/ شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر ص 225.
- 49 - ينظر د/ عمر الدسوقي: في الأدب الحديث 384/1 وينظر عباس محمود العقاد: محمد عبده ص 220 - ط3 دار الكتاب العربي القاهرة 1969.
- 50 - د/ محمد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة ص 31، 43 - دار القلم الكويت 1987.
- 51 - ينظر آثار الإمام ابن باديس 102/5.
- 52 - ينظر أحمد حماني: الثقافة ع 38 (أفريل - ماي 1977) ص 101 الجزائر.
- 53 - ينظر الأعمال الكاملة 131/3 - تحقيق د/ محمد عمارة المؤسسة العربية بيروت 1972.
- 54 - ينظر محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده 872/1.
- 55 - كلمة غير مفهومة.
- 56 - عثرت على هذه العبارة بخط يد ابن باديس في كتاب أحكام القرآن لأبي العربي 1/2.
- 57 - عثرت على هذه العبارة بخط يد ابن باديس في كتاب أحكام القرآن لأبي العربي 1/2.
- 58 - ينظر د/ محمد عمارة: الأعمال الكاملة 80/1.
- 59 - ينظر د/ محمد علواش: حركة ابن باديس التربوية وأهدافها الإصلاحية ص 83 رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة - جامعة الجزائر (مخطوطة).
- 60 - ينظر د/ محمد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة ص 75.
- 61 - ينظر آثار الإمام ابن باديس 92/3.